ثقافتان وواقعان

د. سهيل ادريس

نحن من الذين يؤمنون بأنَّ على الأديب أن يقف موقف الحذر من كلِّ سلطة، حتّى ولو كان يؤيِّدها مبدئيّاً، وذلك ليستطيع أن يحافظ أبداً على استقلاله فيحتفظ بحريّة تعبيره في المواقف التي قد يختلف فيها مع هذه السلطة اختلافاً كبيراً أو جزئيّاً.

ونحن، كأدباء، أشدُّ حذراً من السلطة في قضيّة التطبيع مع العدوّ الصهيوني. ونؤكِّد من جديد رفضنا القاطع إقامة أيّة علاقة بهذا العدوّ، ومواصلة الكفاح ـ بمختلف الوسائل ـ لطرد هذا الاحتلال عن آخر بقعة من الأرض العربيّة المحتلّة.. ولو اقتضى كفاحُنا العسكريّ والثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ أجيالاً تالية.

ويهمّني في هذا الصَّدد أنْ أعبِّر عن استنكاري مقولةَ بعض أركان النظام اللبناني، وهي أنَّ لبنان سيكون آخرَ مَنْ يوقِّع على وثيقة سلام مع العدوّ. فهذه المقولة لا تثبت بطولة ولا عنفواناً؛ إنْ هي إلاَّ تبعيّة ضمنيّة للانهيار العربي المتزايد، وهي تبعيّة يجدر بنا أن نصوغ مقولتها على الشكل التالي الأقرب إلى واقع حال هذا النظام: «لا مفرّ من الانهيار بعد أن انهارتْ بقيّة الأنظمة، ولكنْ سنبذل أقصى الجهد لنكونَ آخر المنهارين وآخر المستسلمين!».

وأمّا الموقف الذي نتبنّاه نحن الكتّابَ العربَ الذين عايشوا الصراع مع «إسرائيل» منذ وعينا الحياة، فينبني على منطق معاكس لمنطق هذه الأنظمة جميعها: فنحن سنبذل أقصى الجهد كي لا ننهار، ولو انهارتْ جميع الأنظمة!

مثاليّة يقولون، وتنكُّرٌ للواقع! نعم، نُجيب! ذلك أنَّ الإحباط الذي نعيشه يفتقر إلى قدرٍ من المثاليّة ليمكن تجاوزه. كما أنَّ الواقع أضحى من الرداءة بحيث بات قبوله ضرباً متطرّفاً من الاستسلام.

ولابدّ أخيراً من تأكيد أنّنا إذْ نرفضُ الإحباطَ والاستسلامَ و«الواقع»، فإنّنا نُنبِّه إلى وجود واقع آخر لا يستأثر باهتمام الأنظمة ولا بدعمها اللازمين: وهو واقع الانتفاضة والمقاومة الوطنيّة... وواقع المعارضة المتنامية للتطبيع والقهر في كثير من الأقطار العربيّة.

ثمّ إنّنا ندّعي «المستقبليّة» فلا نعدّ «الحالي» نهائيّاً، بل نراهن على الآتي ونصبو إلى المستقبل. ومن هنا كان إيماننا بأنّه لا يحقّ لأيّ نظام أن يصادر إرادة الشعب وأجياله القادمة ويسدّ في وجهها احتمال النَّصر. لا يحقّ لأيّ قائد أو زعيم عربي من أيّ قطر كان أن يتّخذ قراراً يغلق به إمكانيّة استمرار النضال، حتّى ولو كان هذا القائد أو الزعيم يلجأ إلى «المخادعة» و«التكتيك» فيما يزعم! وإذا لم يكن بمقدوره ـ في ظلّ «الواقع» الرديء ـ مواصلة الكفاح، فليتنحَّ لسواه، فلن يكون هذا بأرْدَأ منه!

لا يكفي أن نكونَ مهزومين حتّى نستسلم.

وإذا كان من خيار بعض الأنظمة المهزومة أن تستسلم، فإنَّ من خيار الثقافة المقاومة أن تتصدّى، وقد قرَّرنا أن نتصدّى. قرَّرنا أن نتصدّى لكلِّ من يحاول أنْ يعطي العدوَّ الصهيوني غيرَ صفة الوحشيّة والعدوان والمجازر. وقرَّرنا أن نتصدّى لكلِّ من يرى أنَّ الهزيمة والخنوع قدرٌ واجب على أمّتنا. وقرَّرنا أن نتصدّى لبعض الأقلام التي تهزأ بمحاربة التطبيع مع العدو الصهيوني، وحجّتها أنّ «إسرائيل» ستذوب بمجرَّد اندماجها في علاقات اقتصاديّة وثقافيّة مع الوطن العربي. ولعلَّ منطق هذه الأقلام هو المنطق الأخطر الذي يجب علينا مواجهته بشكل دائم، فهو منطق يدغدغ ثقة الشعب العربي بنفسه وماضيه وحضارته، لكنّه يفرض عليه تعتيماً هائلاً حول قدرة «إسرائيل» الفائقة ـ بمساعدة الغرب ـ على إقامة علاقات مؤسّساتيّة أفضل مع الغرب وعلى تأمين البضائع للزبون بشروط أفضل!

وقرَّرنا، تبعاً لذلك، أن نتبنّى موقف الاتحاد العام للأدباء العرب الذي ينصّ نظامه الأساسي على «محاربة الحركات العنصريّة، وعلى رأسها الصهيونيّة، ومقاومة كل الدعوات للتعايش مع الكيان الصهيوني، أو الاعتراف به واعتبار ذلك خيانة قوميّة» (من مقدّمة النظام الأساسي للاتحاد). وقرَّرنا أيضاً أن نتبنّى «ميثاق الشرف» الذي أقرّه الاتحاد المذكور في مؤتمره الثامن عشر... حتّى ولو وقّعت جميع الأنظمة العربيّة على «السلام» مع «إسرائيل».

وأخيراً فقد أعلنّا ـ في حفلة التكريم التي أقامها الاتحاد العام للكتّاب العرب لمجلّة الآداب ـ أنّنا سنكرِّس مجلّتنا منبراً يواصل مسيرة الثقافة العربيّة المقاتلة. (*)

(*) من استفتاء أجرته جريدة السفير في نهاية شهر آب عن دور المثقّف اللبناني في حال حصول تطبيع مع العدوّ الصهيوني.